

النظم الامبراطورية ومفهوم الهيمنة

د. محمد عبد العزيز ربيع

تقول نظرية الهيمنة ، تظهر بين الحين والآخر دولة عظيمة ذات نفوذ عالمي تحاول ، ويكون من واجبها أن تحاول ، الهيمنة على الغير من الدول ، وإقامة نظام عالمي جديد تجلس على قمته ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات الدولية ، والعمل على استتباب الأمن العالمي وضمان استمرار النشاطات التجارية والتعاون بين الشعوب. ويقول المؤرخون أن أوروبا استطاعت بدءا من القرن الخامس عشر مد نفوذها إلى مناطق مختلفة من العالم ، إلا أنها لم تستطع السيطرة على كل البلاد التي كانت تتطلع إلى السيطرة عليها ، وذلك لأن دولها الرئيسية لم تملك الأدوات اللازمة لتحقيق أهدافها من ناحية ، ولأن الصين في حينه كانت أكبر دول العالم وأكثرها تقدما من ناحية ثانية. لكن القرن الخامس عشر لم ينتهي حتى كان البحارة والرحالة الأوروبيون الأوائل قد زاروا معظم بقاع العالم ، وتعرفوا على اوضاع شعوبها ، ورصدوا خيراتها القابلة للاستغلال.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، خاصة بعد استكشاف معالم العالم الجديد والتعرف على شعوبه وخيراته ، دخلت دول أوروبا الرئيسية حالة من التنافس الشديد ، والذي ازدادت حدته بعد دخول بريطانيا وفرنسة حلبة التنافس ، وذلك إلى جانب اسبانيا والبرتغال وهولندا. ولقد تطورت الأمور إلى وقوع حروب عدة ، كان هدفها الرئيس السيطرة على البحار وطرق التجارة الدولية ، خاصة تجارة التوابل ومصادر الذهب والفضة. وبالرغم من أن القوة العسكرية كانت أهم أدوات الهيمنة ، إلا أن أوروبا قامت بملئ الكثير من المناطق غير المأهولة وقليلة السكان باعداد كبيرة من المستوطنين الذين اصبحوا امتدادا لشعوبها وثقافتها ، وأدوات للهيمنة على الغير واستغلالهم.

وبينما ادعت دول أوروبا الاستعمارية أن هدفها هو تحضير الشعوب المتخلفة ونشر المسيحية فيها ، كان الهدف المبطن هو استغلال خيرات البلاد المستعمرة واستعباد شعوبها. إذ أن مجرد اعتبار شعوب البلاد المستعمرة شعوبا متخلفة كان في حد ذاته قرارا بأن تلك الشعوب لا تستحق من الحرية ولا تملك من العقلانية ما تستحقه وتملكه الشعوب الأوروبية. وبينما ركزت اسبانيا على نشر الديانة الكاثوليكية ونهب مناجم الذهب والفضة التي اكتشفتها في أمريكا اللاتينية ، ركزت البرتغال على السيطرة على طرق

الملاحة والتكتم على أسرار وتكنولوجيا الابحار عبر المحيطات. أما هولنده فقد ركزت على التجارة ، خاصة تجارة التوابل ، واقامة الشركات الاستثمارية والتجارية العملاقة ، وتأسيس بيوت المال لتمويل العمليات الاستثمارية في البلاد المستعمرة والعمليات التجارية بين تلك البلاد وأوروبا. وبعد أن قامت هولنده ببناء ميناء امستردام الجديد أصبح في مقدورها احتكار معظم التجارة القادمة من المستعمرات إلى أوروبا ، حتى مع المستعمرات التي كانت تسيطر عليها بريطانيا مثل فرجينيا. وهذا مكن هولنده ، على الرغم من صغر سكانها ومساحتها ، من تأسيس أول نظام عالمي والسيطرة عليه وتسخيرها لخدمة مآربها ، وهو نظام قام على أساس التجارة والمال ومن اجلهما.

إلا أن الهيمنة الهولندية لم تدم طويلا ولم تكن في الحقيقة هيمنة كاملة أو شاملة ، وذلك لأن هولنده لم تملك ما يكفي من القوة العسكرية أو البوارج البحرية لحماية مصالحها والدفاع عن مستعمراتها. وحين فشلت محاولات التعاون بين هولنده وبريطانيا في حصول الأخيرة على حصة الأسد من التجارة الدولية ، قامت بريطانيا بشن حرب على هولنده. ولم تمض عقود قليلة حتى اسست بريطانيا شركات استثمارية وتجارية كبيرة ، وأقامت بيوتا مالية ومؤسسات ائتمانية على درجة عالية من الكفاءة ، كما قامت أيضا ببناء اكبر اسطول عسكري وتجاري في العالم. ولقد تسبب ذلك في تراجع مكانة هولنده الدولية بدءا من منتصف القرن الثامن عشر ، حيث قامت بريطانيا بأخذ مكانتها وتأسيس امبراطورية شاسعة الاطراف دامت أكثر من 150 عاما. ولم تبدأ الامبراطورية البريطانية في التراجع الحقيقي إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كلاعب عالمي رئيسي ذا قوة عسكرية واقتصادية كبيرة ومنتامية.

لقد قامت بريطانيا حيث حلت باستخدام سياسة " فرق تسد " للسيطرة على الشعوب التي استعمرتها ، واتجهت إلى استخدام كل الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافها التجارية والسياسية. ولقد اعتمدت في ذلك على ما كانت قد طورته من تكنولوجيا السلاح ، وما ملكته من حنكة سياسية و ارادة قوية على اتباع طرق غير الاخلاقية للهيمنة على الشعوب المغلوبة على أمرها. وأهم مثال يمكن أن نذكره في المجال ، نشر تعاطي الافيون في الصين على أكبر نطاق ممكن ، والعمل على تدمير صناعة القطن في الهند من اجل احتكار شركاتها لتلك الصناعة ، وتطوير زراعة القطن في مصر حين اصبح من الصعب التحكم في عمليات انتاجه وتصديره من أمريكا. ومن خلال السيطرة على الجزء الأكبر من العالم ، والذي جعل الشمس لا تغيب عن الامبراطورية البريطانية ، استطاعت بريطانيا اقامة نظام عالمي جديد جلست على قمته وسخرته لخدمة أهدافها وحماية مصالحها ، وهذا مكنها من نهب خيرات بلاد وشعوب بلا عدد ، وتمزيق شعوب

مسالمة إلى قبائل متحاربة كما فعلت في افريقيا ، وتجزئة بلاد وأمم إلى دويلات صغيرة متنافسة فيما بينها ، وتركها في حالة مستمرة للحماية الخارجية.

ومع تراجع الامبراطورية البريطانية بدأت الامبراطورية الأمريكية في التوسع لتحل محل سابقتها ، وهي امبراطورية لم يعترف قاداتها ومنتقفيها بكونها امبراطورية إلا بعد أن تسلم الرئيس بوش مقاليد الحكم قبل 6 سنوات. وتقول نظرية الهيمنة أن تراجع مكانة الدولة المهيمنة على النظام العالمي يبدأ في الداخل حين يضعف اقتصادها ، وتخبو إرادة الغزو والهيمنة لدى النخبة المسيطرة على الحكم فيها، وتضعف ثقة الغير في قدراتها العسكرية. فهل دخلت الامبراطورية الأمريكية مرحلة التراجع ؟ وكيف يمكن أن يكون عليه الحال من بعدها ؟ سؤالان هاما سنحاول مناقشتهما في المقال القادم.

د. محمد عبد العزيز ربيع professorrabie@yahoo.com

لنشر يوم 21-11-2006

www.yazour.com